المجنون

ـ ٣ ـ

وكنا في النَّديِّ ثلاثةً : أنا ، و ا . ش ، وس . ع[(١)] ؛ وقد هيَّأْتُ تدبيراً تَوافَقْنا عليه لتحريك هذين المجنونين ، وتدوينِ ما يجيء منهما . فلمَّا أقبلا ؛ تحفَّينا بهما ، وألْطَفْنَاهما ، وقمنا ثلاثتُنا ببَسْطِهما ، وإكرامِهما ، حتَّى حسبا أنَّ في كلمة « مجنون » معنى كلمة أمير ، أو أميرة . . . ورأيتُ في عينيْ « نابغة القرن العشرين » ـ وهو أعْيَنُ ، أنجَلُ[(٢)] ـ ما لو ترجمتُه لما كانت العبارةُ عنه إلا أنه يعتقد أنَّ له نفساً أُنثى أعشقُها أنا . . . فكان مُسَدَّداً فَكِهَ اللِّسانِ ، تُسْتَمْلَحُ له النَّادرةُ ، وتُستظْرَفُ منه الحركة .

ولما تمكَّنَ منه الغرورُ ، واحتاج الجنونُ كما يحتاج الجمالُ إلى كبريائه ؛ إذا حاطتْه الأعيُن ، أدار بَصَرَه في المكان ، ثُمَّ قال : أُفٍّ لكم ، ولما تصبرون عليه من هذا النَّديّ في ضَوْضائه ، ورعاعِه[(٣)] ، وغَوغائِه[(٤)] ! إنْ هؤلاء إلا أخلاطٌ ، وأوشابٌ[(٥)] ، وحُثالةٌ . هذا الجالسُ هناك . هذا الواقفُ هناك . هذا المسْتَوفِز . هذان المتقابِلان . هؤلاء المتجمِّعون . هذا كلُّه خيالُ حقيقةٍ في رأسي . ما هي ؟ ما هي ؟

هذا التَّصايُحُ المنكَر . هذا الضَّربُ بحجارة النَّرد . هذه الزَّحمةُ التي انغمسنا فيها ، هذا المكانُ الهائجُ من حولِنا . هذا كلُّه خيالُ حقيقةٍ في رأسي . هي ، هي ، هي .

فانزعج المجنونُ الآخر ، ووَقع في تَهاويل خياله ، ونظر إلينا تدورُ عيناه ،

---

(١) س ع هو الصديق سعيد العريان . (ع) .

(٢) أي : واسع العين أنجلها ، وقد مرَّ وصفه في المقالة الأولى . (ع) .

(٣) « رعاعه » : الرُّعاع من الناس : سَفِلتهم وأخلاطهم .

(٤) « غوغائه » : الغوغاء : السَّفِلة من الناس ؛ لكثرة لغطهم وضوضائهم .

(٥) « أوشاب » : جمع وِشْب ، وهم الأوباش والرعاع من الناس .

وتوَجَّسَ شرّاً ، ثمَّ زاغ بصرُه إلى الباب ، واسْتَوْفزَ ، وجمع نفسَه للقيام ؛ فلمَّا رأى صاحبُه ما نزل به ، قَهْقَهَ ، وأمْعَن في الضَّحك ، وقال : إنَّما خوَّفتُه الصِّبيانَ ، والضَّربَ ليثبتَ لكم أنَّه مجنون .

فحَرِدَ الآخرُ ، واغتاظ ، وجعل يُتمتم بينه ، وبين نفسه .

قال « النَّابغة » : ما كلامٌ تَطِنّ به طنينَ الذُّبابة أيها الخبيث ؟

قال : « ممَّا حفظناه » : أنَّ من علامات الأحمق : أنَّه إذا استُنْطِقَ ؛ تَجلَّفَ ، وإذا بكى ؛ خار[1] ، وإذا ضَحِك ؛ نَهقَ . . . كما فعلتَ أنت السَّاعةَ ، تقول : هاءْ ، هُوءْ ، هِيءْ . . .

فتغيَّر وجهُ « النَّابغة » ، ونظر إليه نظرةً منكرةً ، وهمَّ أن يقتَحِمَ عليه ، وقال : أيُّها المجنون ، لماذا تضطرني إلى أن أُجيبَك جوابَ مجنون . . . لا نجوتُ ؛ إن نجوتَ منِّي !

فأسرع ا . ش ، وأمسك به ، واعترضَ مِنْ دونهِ س . ع ، وقال له : أنت بدأتَه ، والبادئُ أظلم .

قال : ولكن ـ ويحه ! ـ كيف قال هذا ؟ كيف لم يقل إلا هذا ؟ كيف لم يجد إلا هذا يقولهُ ؟ أنابغةُ القرن العشرين أحمق ، وقد أوْحدَهُ الله في القرن العشرين ؟ لَهَمَمْتُ والله ! أن أكسِرَ الذي فيه عيناه ؛ فما يقولُ إلا أنِّي أحمقُ القرن العشرين .

* * *

قلتُ : إن كان هذا هو الذي أغضبك منه ؛ ففي الحديث الشَّريف : « ليس من أحدٍ إلا وفيه حَمْقَةٌ ، فَبِها يعيش » . والحياةُ نفسُها حماقةٌ منظَّمة تنظيماً عاقلاً ؛ وما يُقبلُ الإنسانُ على شيءٍ من لذَّاتها إلا هو مقبلٌ على شيءٍ من حماقاته ، وأمتعُ اللَّذة ما طاش فيه العقلُ ، وخرج من قانونه ؛ ولولا هذا الحمقُ في طبيعة الإنسان لما احتمل طبيعةَ الحياة ؛ أليسَ يُخيَّلُ إليك أنَّ أكثرَكَ غائبٌ عن الدُّنيا وأقلَّك حاضرٌ فيها ، وأن يَقَظتك الحقيقيةَ إنَّما هي في الحلُمِ ، وما يُشبه الحلُم ، كأنَّك خُلِقتَ في كوكب ، وهبطتَ منه إلى كوكبنا هذا ، فما فيك للأرض ، ولا فيها لك إلا القليلُ ،

(١) « خار » : ضَعُف ، وانكسر .

يلتئِمُ بعضه ببعضه ، وأكثركما مُتَنافِرٌ ، أو متناقِضٌ ، أو متراجِعٌ ؟

قال : بلَى !

قلتُ : فهذا القليلُ هو الحمقَة التي بها تعيش ، وهو أرضيَّةُ الأرضِ فيك ؛ أمَّا سماويةُ السَّماء ؛ فبعيدةٌ لا تحتملُها طبيعةُ الأرض ؛ ولهذا يعيشُ أهلُ الحقيقة عيشَ المجانين في رأي المغرورين ؛ الَّذين غرَّتهم الحياةُ الفانية ، أو المخدوعين ؛ الَّذين خدعتهم الظَّواهر الكاذبة ؛ فكلَّما أتوْا عملاً من الأعمال السَّامية انتهى إلى الحَمْقَى معكوساً ، أو محوَّلاً ، أو معدولاً به ؛ ولعلَّ هذا أصحُّ تفسيرٍ للحديث الشَّريف : « أكثرُ أهلِ الجنَّةِ البُلْه »[1] .

قال المجنون الآخر : « ممَّا حفظناه » : أكثرُ أهل الجنة البُله .

فقال (النَّابغة) : المصيبةُ فيك : أنَّك أنت هو أنت ؛ ألا فلتعلمْ أنَّك من بُلَهاء البيمارستان ، لا من بُلْهِ الجنَّة .

قلتُ : ثمَّ إنَّ الموتَ لا بدَّ آتٍ على النَّاس جميعاً ، فيسلبُهُم كلَّ ما نالوه من الدُّنيا ، ويُلْحِقُ مَنْ نال بمن لم ينل ؛ فمن ذا الذي يُسَرُّ بأن ينال ما لا يبقى له ، إلا أن يكونَ سرورُه من حماقته ؟ ومن ذا الذي يحزَنُ على أن يفوتَه ما لا يبقى له ، إلا أن يكونَ حزنُه حماقةً أخرى ؟ وأي شيءٍ في الحبِّ بعد أن ينقضيَ الحبُّ إلا أنَّه كان حماقةً ضرَبَتْ في الحواسِّ كلِّها ملأت النَّفس ؛ ثمَّ ملأت النَّفس حتى فاضت على الزَّمن ؛ ثمَّ فاضتْ على الزَّمن حتى خبَّلت العاشقَ تخبيلاً لذيذاً ، تصغُر فيه الأشياء ، وتكبر ، ويجعلُ الواقعَ في النفس غيرَ الواقع في دنياها ؟ يُشبِّه كلُّ عاشقٍ حبيبتَه بالقمر : فهَبِ القمرَ سمع هذا ، وفهمه ، وعَنَاه أن يُجيبَ عنه ، فماذا عساه يقول إلا أن يُعْجَبَ من هذا الحمق في هذا التَّشبيه ؟

* * *

فهدأ (النَّابغة) وسكن غضبُه ، وقال : صدقت ! ولهذا أنا لا أشبِّه حبيتي بالقمر .

قلت : فبماذا تشبِّهها ؟

---

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (١٩٨٣) وانظره في مجمع الزوائد (٨/ ٧٩) .

قال : لا أقول لك حتَّى أعلم بماذا تشبِّه أنت حبيبتَك . قلت : وأنا كذلك لا أشبِّهها بالقمر .

قال : فبماذا تشبهها ؟ قلت : حتَّى أعلمَ بماذا تشبِّه أنت .

قال : هذا لا يُرضَى منك ، وأنت أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، ولك حبائبُ كثيراتٌ عدَدَ كتبك ، وقد أعجبتني منهنَّ تلك التي في (أوراق الورد) ، وأظنُّك أحببتها في شهر مايو من سنة . . . من سنة . . .

قال المجنون الآخر : من سنة ١٩٣٥ ؛ ها أنذا قد نبهتُك .

قال : يا ويلك ! إنَّ (أوراق الورد) ظهرتْ من بضع سنين ، إنَّما أنت من بُلهاء البيمارستان[١] ، لا من بُلْهِ أوراق الورد . . . ماذا كنتُ أقولُ ؟

قال ا . ش : كنتَ تقول : هذا لا يُرضَى منك ، ولك حبائب[٢] كثيراتٌ .

قال : نعم ، لأنَّك إذا شبهت واحدةً منهنَّ بالقمر ؛ انتهى القمرُ ، وفرغ التَّشبيه ، فيظلُّ الأخريات بلا قمر . . . ثمَّ إن كلمةَ القمر لا تعجبني ، فلونها أدكن[٣] مُغْبَرٌ يَضرِب أحياناً إلى السَّواد . . . فإذا عشقتُ زنجيةً ؛ فها هنا التَّشبيه بالقمر . . . أمَّا البيضُ الرَّعابِيب[٤] فتشبيههُنَّ بالقمر من فساد الذَّوق .

قال س . ع : وللألفاظ ألوانٌ عندك ؟

قال : لو كنتَ نابغةً ؛ لأبصرتَ في داخلك أخْيِلةً من الجنَّة ، ألم يقل أستاذنا آنفاً عن (نابغة القرن العشرين) : إنَّه هبط من كوكبٍ إلى كوكبٍ ؟ ففي كركبنا الأول يكون لنا سمْعٌ ملوَّن ؛ وحِسٌّ ملوَّن ، نسمع قرعَ الطَّبل أزرق ، ونفْخَ البوقِ أحمر ، ورنينَ النَّغَم الحُلوِ أخضر[٥] ، والوجودُ كلُّه صُوَرٌ ملوَّنةٌ ، سواءٌ منه

(١) « البيمارستان » : المستشفى .

(٢) « حبائب » : جمع حبيبة .

(٣) « الدكنة » : لون بين الحمرة والسَّواد . (ع) .

(٤) « الرعابيب » : جمع رُعْبُوب ، ورعبوبة ، وهي : المرأة البيضاء الحلوة الناعمة الممتلئة الجسم .

(٥) هذا واقع وليس من الخيال ، فبعض الناس يسمعون الأصوات ، ويحسون الأشياء ملونةً ؛ وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ، ويعلّلونه بأنه صور ذهنية قد لبسها مؤثر=

ما يُرَى ، وما يُحَسُّ ، وما هو مُسْتَخْفٍ ، وما هو ظاهرٌ .

ثُمَّ أومأ إلى المجنون الآخر ، وقال : واسمُ هذا الأبله كلفظِ الحِبْر : لا أسمعُهُ إلا أسود .

* * *

وسكت « النَّابغة » وسكتنا ؛ فقال له س . ع : مالك لا تتكلَّم ؟ قال : لأنِّي أريد السُّكوت . قال : فلماذا تريد السُّكوت ؟ قال : لأنِّي لا أريد أن أتكلَّم .

وتحرَّك في نفسه الغيظُ من المجنون الآخر ، فرمى بعينه الفضاء ينظر إلى اللاشيء ، وقال : إذا أصبح كلُّ النِّساء ذواتِ لِحىً أصبح هذا عاقلاً . . . فدقَّ الآخر برجله دقاتٍ معدودة ؛ فثار (النَّابغة) وقال : مَن هذا يشتُمُني ؟

قال س . ع : لم يشتمك أحد ، هذا خَفْقُ رجلٍ على الأرض .

قال : بل شتمني هذا الخبيثُ ، وسَمْعي لا يَكْذِبُني أبداً ، وأنا رجلٌ ظَنُونٌ ، أسيء الظَّنَّ بكلِّ أحدٍ ، وعلامةُ الحازم « العاقلِ » سوءُ ظنِّه بالنَّاس . فهبْه كما قلتَ ، قد خفَقَ بنعله ، أو خَبَط برجله ، فهو ما يعني من ذلك ، وأنا أسمعُ ما يعنيه . لقد طفحَ الشِّعرُ على قلبي ، فلا بدَّ لي من هجائه ، ولا بدَّ لي أن أذبَحه ، ولو بالكلام ، فإنِّي إذا هجَوتُه ؛ رأيتُ دمَه في كلماتي ، وأريد أن أجعلَه كالعَنزِ التي كانت عندنا ، وذبحناها .

ثم انتزع قلم س . ع ، وقال : هذه هي السِّكِّين . ولكن أسألُك يا أستاذي ! أن تذبحَهُ أنت بكلمتين ، وتصفَ له جنونَه ، فقد عزَبَ عنِّي الشِّعر . إنَّ خَفْقَةَ رَجلٍ على الأرض تستطيرُ الأرانبَ فزعاً ؛ فيَنْفِرْن إلى أجْحارِهنَّ ، وَيتَهَارَبْن ، وما كانت أبياتُ الشِّعر في ذهني إلا أرانب .

أنتم لا تعرفون أنَّ من كان حَصِيفاً ثبتاً[1] مثلي ؛ كان دقيقَ الحسِّ ؛ ومن كان فَدْماً[2] غبيّاً مثلَ هذا ، كان بليدَ الحسِّ ، غليظاً ، كثيفاً ؛ فإذا أنا استشعرتُ البردَ ،

= من المؤثرات ، فهو يصبغها بلونه . (ع) .

(١) « ثبتاً » : الثبت : الشجاع الثابت القلب ، والعاقل الثابت الرأي .

(٢) « فدماً » : الفَدْم : العييّ عن الكلام مع ثِقَل ، ورخاوة ، وقلة فهم ، وفطنة . والغليظ الأحمق الجافي .

رأيتُني قد سافرتُ إلى القطب الشَّمالي ؛ أمَّا هذا المجنونُ ؛ فهو إذا استشعر برداً سافر إلى عَباءته ، أو لحافِه . . . ؛ إذ هو لا يعرف جغرافيا ، ولا يدري ما طَحَاها .

قلت : هذا منك أظرفُ من نادرة أبي الحارث . قال : وما نادرةُ أبي الحارث ؟ وهل هو نابغة ؟

قلت : جلس يتغدَّى مع الرَّشيد ، وعيسى بن جعفر ، فأتِيَ بخِوانٍ عليه ثلاثة أرغفة ، فأكل أبو الحارث رغيفَه قبلهما ، والرَّشيدُ ملِكٌ عظيمٌ : لايأكلُ أكلَ الجائع ، وإنَّما هو التَّشعيثُ[1] من هنا وهناك ؛ فكان رغيفُه لا يزال باقياً ؛ فصاح أبو الحارث فجأةً : يا غلام ! فَرَسِي ! ففزع الرَّشيد ، وقال : ويلك ! ما لكَ ؟ قال : أُريد أن أركب إلى هذا الرَّغيف الَّذي بين يديك .

قال (النَّابغة) : ولكنَّ فرقاً بين أبي الحارث ، وبين (نابغة القرن العشرين) ، فإنَّ من العجائب أنِّي ربما نظرتُ إلى الرَّجل وهو يأكلُ ، فأجدُ الشِّبَعَ ، حتَّى كأنَّه يأكل ببطني لا ببطنه ، ولكن من العجائب أنَّ هذا لا يتَّفق لي أبداً حين أكون جائعاً .

أما هذا المجنونُ الذي أمامنا ، فربَّما أبصر الحمارَ على ظهره الحِمْلُ ، فيشعُرُ كأنَّ الحملَ على ظهره هو لا على ظهر الحمار .

قال الآخر : « ممَّا حفظناه » : أنَّه سُرق لأعرابيٍّ حمار ، فقيل له : أَسُرِق حمارُك ؟ قال : نعم ، وأحمد الله ! فقيل له : على ماذا تحمده ؟ قال : على أنِّي لم أكن عليه حين سُرق . . . . فأنا إذا رأيتُ حماراً مثقَلَ الظَّهرِ ، حمدتُ الله على أن الحملَ لم يكن عليَّ ، لا كما يقول هذا . ثمَّ دقَّ برجله دقَّاتٍ .

فاستشاط[2] (النَّابغة) وقال : أسمعتم كيف يقول : إنِّي مجنون ؟ ثُمَّ لا يكتفي بهذا بل يقول : إنِّي حمار على ظهر الحِمل .

قلت : ينبغي أن تتكافأ ، وهذا لايَعيبك منه ، ولا يعيبُه منك ، فإنَّ من تواضُعِ « النَّوابغ » أن يشعروا ببؤس الحيوان ، فإذا شعروا ببؤسه ؛ دخلتْهم الرِّقَّةُ له ، فإذا دخلتهم الرِّقَّةُ صار خَيالُ الحملِ حِمْلاً على قلوبهم الرَّقيقة ؛ وقد يصنعون أكثرَ من

(١) « التشعيث » : شعَّث الشَّيْءَ : فرَّقه .
(٢) « استشاط » : احتدم كأنه التهب من غضبه .

ذلك : حكى الجاحظ عن ثُمامة ، قال : كان (نابغةٌ) يأتي ساقيةَ لنا سَحَراً ؛ فلا يزال يمشي مع دابَّتها ذاهباً وراجعاً في شدَّة الحر أيَّامَ الحرِّ ، وفي البرد أيَّام البرد ، فإذا أمسى توضَّأ ، وقال : اللَّهمَّ اجعل لنا من هذا الهمِّ فَرَجاً ومَخرجاً ! فكان كذلك إلى أن مات .

قال المجنون الآخر : « ممَّا حفظناه » : ثمرةُ الدُّنيا السُّرورُ ، ولا سرورَ للعقلاء ، فلو لم يكن هذا أعقلَ العقلاء ؛ لما مُحِقَ سرورُه في الدُّنيا هذا المحْقَ إلى أن مات غمّاً ، رحمه الله !

* * *

قال س . ع : فاعفُ الآن عن صاحبك ، ولا تذبحْه بالهجاء .

قال : لقد ذكَّرْتَني من نسيان ، وهذا المجنونُ يرى نسياني من مرضٍ عقليٍّ ، وكان الوجهُ ـ لو تهَدَّى إلى الحقيقة ـ أن يراه شذوذاً في العقل ، أي نبوغاً عظيماً ، كنبوغ ذلك الفيلسوف الَّذي أراد أن يَتَثَبَّتَ في كم من الزَّمن تُسلق البيضة ؛ فأخذ بيده السَّاعةَ ، وبيده الأخرى بيضة ، ثم نسِيَ نسيانَ النُّبوغ ، فألقى السَّاعةَ في الماء على النَّار ، وثَبَتَتْ عينُه على البيضة ينظر فيها على أنَّها هي السَّاعة . ولو قد رآه هذا الأبله ؛ لزعمه مجنوناً ، كما يزعمني ، فإنَّ المجانينَ يرون العقلاء مرضَى بمواهبهم وأعمالِهم الَّتي يعملونها .

وأنا فليس يَهيجُني شيءٌ ما تَهيجني كلماتٌ ثلاثة : أن يقال لي : مجنون ، أو أبله ، أو أحمق . فمن رغِبَ في صحبتي ، فليتجنَّب هذه الثَّلاثَ ، كما يتجنَّب الكفرَ ، والكفرَ ، والكفر .

قال ا . ش : فإذا قيل لك مثلاً . مثلاً . أي على التَّمثيل : مغفَّل .

فحكَّ رأسَه قليلاً ، وقال : لا ؛ هذه ليست من قَدري[1] .

قلت : فبعضُ الكلمات إذا قُطعتْ عندك غيَّرت الحقائق ، كذلك القرن الَّذي قُطع فَرَدَّ البقرةَ فرساً ؟

قال : وكيف كان ذلك ؟

---

(١) نص عبارته : « دي مش أدّي » . (ع) .

قلت : زعموا : أنَّ أعرابيّاً خرج إخوتُه يشترون خيلاً ، فخرج معهم ، فجاء بعجلٍ يقوده ؛ فقيل له : ما هذا ؟ قال : فرس اشتريته . قالوا : يا مائق[1] ! هذه بقرة ، أما ترى قرنيها ؟

فرجع إلى منزله ، فقطع قرنيها ، ثُمَّ قادها إليهم ، وقال لهم : قد أعدْتُها فرساً كما تريدون .

قال (النَّابغة) : هذا غيرُ بعيدٍ ، فقد رأيتُنا حين ذبحنا العَنز ، وكسرنا قرنيها أعدناها كلبةً سوداء ، فتقذَّرتُها ، وعِفْتُ لحمَها ، ولم أطعم منها .

ثُمَّ أومأ إلى الآخر ، وقال : هذا لا يدري ما طَحَاها ، وهو مثل العَنز : تحسبُ قرنيها للقتال والنِّطاحِ ، ومنهما تُمسَكُ للذَّبح ؛ فقل في هذا يا أستاذَ (نابغة القرن العشرين) .

قلت للآخَر : أيرضيك أن أقولَ في المعنى لا فيك أنت . . . ؟ قال : نعم . فكتبتُ هذه الأبيات على ما يريد النَّابغة :

قُــل لعَنــزٍ نَــاطِحَــاهــا لقتـــالٍ سَلَّحَـــاهـــا
مــا لهــا قــد طَـرَحَـاهَـا فــي يَـدَيْــنِ ذَبَحَــاهــا ؟

* * *

شِيمـــةٌ منِّـي نَحـاهَــا عقـــلُ غِــرٍّ فَلحَـــاهَـــا
ليـس يـدري مـا طَحَـاهـا بـل يَـرى شمـسَ ضُحَـاهـا
حَجَــراً مثـلَ رَحَـاهَـا ويَـرى الليــلَ مَحَــاهــا
ظُلَمـــاً طـــالـــتْ لِحَـــاهـــا

* * *

وسُرّ (النابغة) وازدهى[2] ، وجعل يقول : طالتْ لِحَاها ، طالت لحاها . وما كان هذا إلا السُّرور الأصغر ؛ أمَّا سروره الأكبر ؛ فمجيء ساعي (البريد

(١) « مائق » : المائق : الأحمق في غباوة .
(٢) « ازدهى » : أخذته خِفَّة من الكبر ، والفخر ، والتيه .

المستعجل) إلى النَّديِّ ، وفي يده رساله عنوانها : نابغة القرن العشرين فلان ، بنديِّ كذا .

وجعل الرَّجلُ يهتفُ بالعنوان يسأل عن صاحبه ؛ فتطاولتْ أعناقُ النَّاس ، ورفعوا أبصارَهم ينظرون إلى (نابغة القرن العشرين) وقد مدَّ يدَه يتناول الرِّسالة ، وكأنه مِلِكٌ من القدماء أُسْقِطَ له كتابٌ بالفَتح العظيم ، وبضمِّ دولةٍ إلى دولته .

ثُمَّ ترك الرسالةَ بين أصابعه ، يقلِّبها ، ولا يفُضُّها ، ونحن في دهشةٍ من أمره ؛ فنظر فيها المجنون ، وقال له : هذا عجيبٌ يا أخي ! كيف هذا ؟ إنَّ هذا لا يُصدَّق ؛ إنَّك لم تُلقِها في صندوق البريد إلا منذ ساعة .

* * *